مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

الدّخول تحت التّضاد

الدكتور، يحيى عبد الرؤوف جبر
أستاذ مشارك بجامعة النجاح الوطنية ـ فلسطين

لكل مقولة خبرية عند الفلاسفة وجهان تحتملهما هما الصدق أو الكذب، وبهذين الاحتمالين يحدد اللغويون الجملة الخبرية، ويفرقون بينها وبين الجملة الانشائية أو الطلبية. ويعبر المناطقة عن التي تحتمل الصدق والكذب معاً بالدخول تحت التضاد، وهذا النوع من المقولات ملبس مضلل، ولا يؤدي إلى وضوح في الرؤية، على العكس من النوع الآخر حتى لو كان لا يحتمل إلا الكذب.

وتشكل حياة الإنسان الفرد... والإنسان في المجتمع من خلال اصطباغها بما ينسجم مع ذاتها الممتدة ـ تشكل مقولة تحتمل الوجوه الثلاثة. وقد تشهد حياة امرىء تقلباً في مصداقيتها من حيث ما تتصف به فتكون مرة هكذا ومرة هكذا، وربما احتدم صراع عنيف بين المرء ونفسه، كأن يكون سوياً ونفسه أمارة بالسوء، أو فاسداً ونفسه لوامة، ويستبد به «الانفصام» حتى تتمخض معركة النفس مع ذاتها عن وجهة إلى «الصدق» أو «الكذب»، وربما تمكن من التوصل إلى صيغة للتعايش مع نفسه تقوم على خلط الأوراق بين الظاهر والباطن، وبذلك يكون

«كالداخل تحت التضاد»، وهذا هو النفاق بعينه... إنه منافقة النفس.

ولئن كانت هذه هي حال الفرد، فإنها كذلك حال المجتمع أيضاً، وبصورة أعمق وأوسع وأوضح: فلكل مجتمع ـ ولا نقصد هنا المجتمعات الصغيرة التي ظهرت بقيام الدول الحديثة، بل المجتمع الذي كان قبل ذلك ـ محتوى، تماماً كالألفاظ لكل منها معنى، وما أشبه تطور بعضها بتبدل أحوال المجتمعات حيث تتم العملية بهدوء، ولكن على نحو محكم، قد يكون مدركاً... ولكن الغالب أن يتم ذلك بعيداً عن وعي الإنسان وانتباهه، ودون قصد منه.

إن اللفظ لينصرف لمعنى جديد في قرن من الزمان تقريباً... ولكن المجتمع، لكي يلبس ثوباً آخر، وتغير جيناته وكرموسوماته، ويغير مجراه، لا بد له من وقت أطول.... وبكثير.

ويقف الناظر في «مقولة» المجتمع العربي، وإن شئت الإسلامي، حيث أن الحال في المساوىء والمحاسن، يقف على أنها، واعتباراً منذ نحو من قرنين مضيا أو أكثر، بدأت تعبر طريق التبدل والدخول في منطقة الظل بين الصبح والظلام، داخلة بذلك تحت التضاد نظراً لما راح يعتري صبغة المجتمع الأصلية من شحوب، وتشربها لألوان أخرى بعد حملات معادية عديدة، مختلفة المصادر والأشكال.

ففي الداخل كان التخلف العقلي قد بلغ حداً مزرياً، ولئن كان لذلك من تعليل فهو سوء الإدارة واستبداد بعض الأفكار التي من شأنها إعاقة النمو الاقتصادي بمعناه الواسع، كنظرة كثير من العرب ـ وحتى اليوم ـ إلى المهن والصناعة والفلاحة. يضاف إلى ذلك ـ بل قبله ـ ما ابتُليَ به المجتمع من شيوع بعض العادات والتقاليد الضارة، والتسطح في الحياة، وغياب الوازع الديني، وإلصاق بعض المفاهيم الفاسدة بالإسلام وانتشارها على أنها تمثله وتأخذ منه.

ومن الخارج، كانت أوروبا قد اهتدت إلى أسلوب جديد في التعامل مع هذا المجتمع، غير الحرب الصليبية المباشرة التي ظلت تشنها ابتداء من القرن

العاشر من ميلاد عبد الله المسيح عليه السلام، وإلى فترة قريبة، ذلكم هو أسلوب تقويض البناء من الداخل، ولهذا كان لزاماً عليها أن تعرف كنه المجتمع وكيف يفكر، وبذلك يتحقق لها ما تريد، فأرسلت قناصلها التجاريين، وجندت أعداداً ضخمة من الرحالة والمستكشفين وأرسلت بعثات «التبشير!»، وسرقت كنوز الشرق من مخطوطات وآثار ونحوها، وعكفت على دراستها، فتمكنت بذلك كله من سبر غور نفس أهل الشرق، وتمكنت من تحديد مصدر القوة، أو «الداء» إن شئت، ومن عرف الداء أمكنه وصف الدواء، وتحديد شكل آلة الهدم، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت المعركة تأخذ بعداً جديداً واستراتيجية على طريق تغيير مجرى نهر النور والإشراق، وسلب المجتمع مصداقيته، وإدخاله تحت التضاد، ليعيش من الصراع ألواناً ويذوق منه أشكالاً، وبذلك «يخلو الميدان لحميدان» وقد كان لهم ما كان...

فبادرت أوروبا ـ وأمريكا حضارياً أوروبيّة، وكذلك الاتحاد السوفياتي وإن بدوا متناقضين، لأن الفعل ورد الفعل وإن كانا متناقضين، إلا أنهما متكافئان يكمل أحدهما الآخر ذلك أنهما من جنس واحد، حيث الصبغة المادية هي السائدة في كلا المعسكرين ـ بادرت إلى استخدام السلاح حيث يحسن أن يستخدم السلاح، وإلى استخدام النّدا حيث يحسن الندا، كأنها تلقت درساً من معاوية بن أبي سفيان ومن المتنبي. ولم تبدأ بأطراف المجتمع لتنتهي إلى وسطه بل هاجمته من كل حدب وصوب، ولم يقتصر بذلك على المكان والإنسان، بل تعداه إلى عقل الإنسان وهواه، وأقامت لذلك المعاهد والمدارس التي ما يزال بعضها أو امتدادها ـ وللأسف ـ قائماً يمارس نفس الدور، دور تقديم السم في الدسم، لو كان الأطفال لا يحبون الحلوى.

وبالسلاح تارة، وبالإغراء أخرى، وبشكل مباشر على أيدي «المبشرين» الغربيين مرة، وغير مباشر على أيدي المروجين للثقافة الأوروبية ـ ولا نقول العلم الأوروبي ـ من أبناء الشرق مرة أخرى، تمكنت أوروبا من بسط نفوذها على المجتمع الكبير، وتغلغلت في أعماقه، ويوماً عن يوم لم تعد تجد من الصعوبة والعنت مثلما بدأت به، حيث راح وجودها في الشرق ـ لا نقصد المعنى السياسي

المعاصر للشرق ـ يجذب إليه كثيراً من الفَراش، كان هو أول من باشر بتغيير المجرى.

وبدأ المجتمع يفقد بريقه على نحو متسارع، وانتقلت بؤرة الجذب من أماكن «الوجود» الأوروبي في الشرق إلى أوروبا نفسها حيث بدأ المشارقة يتقاطرون إليها بعد أن «ضبعتهم» طلباً لـ «علم» أو «متعة» أو غير ذلك مما يصعب حصره.

وهكذا ازداد العنصر فقداً لمقوماته، تماماً كما يفقد اليورانيوم مقوماته بالاشعاع.. فيتحول إلى رصاص... ويتغير نتيجة لذلك رمزه الكيماوي... واسمه، وحق على من تغير جوهره أن يتغير اسمه وما يرمز به إليه.

وقد شهد المجتمع الإسلامي في القرن الماضي وأوائل هذا القرن حملة مضادة على أيدي جماعة هبت من هنا وهناك تدافع عن «المجتمع» «بالكلمة» مرة، وبالسلاح «القاصر» مرة أخرى، ولكنها، وللأسف، لم تتمكن من تحقيق أهدافها... لأنها كانت تجذف عكس «التيار» وبخشب قد نخره السوس، ولأن سلامة النية وصحة الفكرة لا يكفيان لتحقيق الهدف، إذ لا بد لتحقيق ذلك من مقومات أخرى.

وقد نذكر من هؤلاء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم والكواكبي وغيرهم بغض النظر عما يقال في بعضهم مما لم يقم عليه دليل قاطع ينافي ما أثر عنهم في الظاهر. وقد كانوا عظاماً لأنهم أجهدوا أنفسهم في الدفاع عن جوهر المجتمع، وإيقاظ الرقود.

فخلف من بعدهم خلف لم يبلغوا مبلغهم ولم يكونوا على مستوى المسؤولية، لأن كثيراً منهم ولدوا وتربوا في مناخ متأثر ـ ولو إلى حد بسيط ـ بقوة السلب الحضاري الذي نجحت أوروبا في تحقيقه، وتبدو آثار ذلك أشد وأوضح فيمن جاء بعدهم حتى نصل إلى يومنا هذا حيث قليلاً ما نجد في الكتاب والأدباء من يشغل نفسه، بل من يجد في نفسه ما يكتبه في ضرورة إعادة النهر إلى مجراه والمجتمع إلى امتداده الصحيح، لأنه ولد وعاش وترعرع وتكوّن فكره في زمن السلب، فكانت النتيجة أن سلب كثير من الكتاب التفكير الصحيح، ولا

عجب إذاً، أن رأينا بعضهم يفكرون بطريقة تنسجم مع ما آل إليه المجتمع من تبدل في جوهره، وتألقه، لأن من شب على شيء شاب عليه، ومن وجد أباه على حال تحلى بها وألفها، وهنا يكمن الخطر، لأن تراكمات كثيرة أطبقت فوق حقيقة المعضلة التي يعاني منها «المجتمع» وعلا النفوس كثير من الصدأ فلم تعد تقوى على تشخيص الداء... وبالتالي وصف الدواء.

وبعبارة أخرى فقد تبلورت مناهج التفكير في إطار التغيرات التي أحدثها «الوجود» الأوروبي فإذا بكثير من الكتاب والمفكرين يرون ويسمعون ويفكرون بطريقة يتشبهون فيها بالطريقة الأوروبية، ومن هنا تخلّقت العاهة البدنية بعد النفسية وكان العرج في الغراب، والإقامة على العجز.

ولعل أخطر ما انتهت إليه الأمور في «دار الإسلام» هو فقد الاستجابة، التي هي رد الفعل. لقد فقد المسلمون القدرة على الفعل والمبادرة منذ زمن، وهم اليوم يفقدون عنصر الاستجابة المتمثل في الرد على التحديات الخطيرة التي باتت تهدد دم الحياة منهم لو كانوا يشعرون، وتلكم وأيم الله هي الحقيقة التي تفوق الموت، وما أشبه الواقع بقول الشاعر:

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في الرَّمادِ

ويقع اللوم الأكبر على الكتاب والأدباء الذين هم أشبه بالمشيعين، ذلك أنهم - وهم قادة الفكر والعقل الموجه! - لا يهتمون بالموضوع الأساس في قضية المجتمع الرئيسة، بل ان منهم من راح يدافع عن «فكر» أوروبا رأسمالياً أو شيوعياً، ويحمل على جذور مجتمعه بعد أن غذي بلبن الواقع الثقافي الذي وُلِدَ فيه، مما كان لأوروبا في صبغه الفُرشة واليد والطلاء.

وقد نعرض لبعض مظاهر الدخول تحت التضاد في واقع الحياة العربية الإسلامية بإيجاز شديد، حيث طغت هذه الظاهرة على جميع جوانب الحياة بأبعادها المختلفة، ففي مجال الأدب والفكر، تم بروز تيار قوي مناهض للأصالة، وفي المقابل قامت حركة نقدية نشطة تتناول الأدب بعيداً عن الحياة

والكيان الاجتماعي بحدوده التاريخية، فإذا بالالتزام كلمة جوفاء، وإن كان لها عند بعضهم معنى فهو لعلاقة بجزئية فرعية. وكأنما سد الباب دون المعضلة الحقيقية، وأقيمت المعركة دونها حتى لا تمتد إليها. وقل مثل ذلك في حقيقة الصراعات الدموية التي يشهدها المجتمع، حيث هي صراعات مفتعلة للحؤول دون أخذ الصراع للونه واتجاهه الصحيحين.

ومن ذلك أن أوروبا بمعناها الذي قدمنا، قد نجحت في كسر الطوق النفسي الذي كان الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً، يتسلحون به ضدها، ونجحت، بالرغم مما فعلته وما زالت تفعله، في تطبيع العلاقات معها، وأنستنا ما كان من جرائمها، وذلك بعد أن تمكنت من خلق جيل ـ كما ورد في مذكرات اللورد كرومر ـ ينتمي إلى الشرق بلسانه ولونه، ولكنه ينتمي إلى أوروبا بطريقة تفكيره.

ومن مظاهر ذلك التناقض الزي الذي هو إطار صورة الشرقي، وهل تكمل الصورة إلا بإطارها، ويلاحظ اليوم، بوضوح تام، أن معركة الزي ما تزال قائمة بالرغم من مرور وقت طويل على ابتدائها، يعود إلى نحو من قرن عندما خرجت هدى شعراوي تطالب بارتداء الأزياء الأوروبية، وبالرغم من أن أكثر من نصف المشارقة وثلث المشرقيات قد غيروا أزياءهم وتأوربوا.

ومن ذلك اختلاف مناهج التربية والتعليم وتوسيعها لتتضمن معارف يتم تحصيلها على حساب المعارف الأصلية، إلى جانب السلوكيات الأوروبية التي أخذت طريقها إلى مجتمعنا على نحو يتفاوت من بلد لآخر، ومن أسرة لأخرى، وتتمثل خطورة ذلك في تحمس بعض الناس لهذه السلوكيات، واتخاذها علامة على التطور والرفعة الاجتماعية!.

ومن ذلك، وهو أخطر المظاهر على الإطلاق، حال الاتصاف بالعروبة والإسلام حيث يشير كثير من الوقائع والاحداث إلى ما يتنافى مع هاتين الصفتين، ولا ينسجم معهما، الأمر الذي يعكسه تسطح الشخصية المعاصرة، وعدم وضوح معالمها، وذوبانها في غيرها إلى حد كبير.

إن التغيرات التي طرأت على الشخصية لم تبدأ باختيارها، ولكنها صارت كذلك فيما بعد، وكلما تقدمت دعوة الخير طور الجانب الآخر أساليبه، واستمر في المتابعة بأشكال مختلفة، وباتت العملية أمراً معتاداً، وجوهر الأمة يطاوع ويطاوع حتى تغير أو كاد، وواجب على من تغير جوهره ـ أو كاد ـ أن يغير اسمه، وهذه الحال من الضياع هي تأرجح بين الصدق والكذب، ودخول تحت التضاد لن يؤدي إلا إلى مزيد من العجز، وتماد في السقوط، ولن يخلص الأمة من هذا الداء العضال كيّ ولا ترياق، فهذه هي الفتن تكوي جسدها، وتلك هي الخيرات غامرة، ولكن خلاصاً لم يتحقق، فأنّى لهذه الأمة أن تنعتق؟.

إن في قوانين الطبيعة ما يقدم حلاً، فما برد بالتدريج يحسن أن تعاد إليه حرارته بنفس التدريج، حتى يلتحم ما انقطع من حاضر الأمة عن ماضيها ويلتئم الجرح.... وحتى تتفتق الأذهان عن حلول أجدى وأسرع، سنظل في منطقة الظل، نشيّع أنفسنا بأنفسنا، ويطوينا التناقض كما يطوي الزمان تعاقب الليل والنهار. ولئن استتر الهلال وصار محاقاً فذلك ليولد من جديد، فهل تعود المياه إلى مجاريها؟ وتولد الأمة من جديد؟ أجل وبإذنه تعالى، فما على الله من شيء بعيد؟.